الأمم المتحدة

A/56/790–S/2002/109

الجمعية العامة
مجلس الأمن

Distr.: General
23 January 2002
Arabic
Original: English

الجمعية العامة
الدورة السادسة والخمسون
البندان ٢٥ و ٤٢ من جدول الأعمال
سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات
الحالة في الشرق الأوسط

مجلس الأمن
السنة السادسة والخمسون

رسالة مؤرخة ٢٢ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢ موجهة إلى الأمين العام من الممثل الدائم لإسرائيل لدى الأمم المتحدة

أود الإشارة إلى الرسالة الموجهة إليكم مؤخرا من الممثل الدائم لجمهورية إيران الإسلامية والمؤرخة ٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢ (S/2002/37).

ففي تلك الرسالة، يدعي الممثل الدائم لإيران أن إسرائيل حرفت فحوى خطبة ألقاها آية الله هاشمي رفسنجاني مؤخرا واقتطفت منها جملا وعبارات خارج سياقها. ورغم أن كذب هذه الادعاءات أمر بالغ الوضوح، فإن دراسة سياق خطبة رفسنجاني سيفيد بكل تأكيد في الوصول إلى فهم أفضل لطبيعة رفض إيران لإسرائيل والتهديدات المضمرة والصريحة التي يستتبعها هذا الرفض.

فالسياق الذي وردت فيه تهديدات رفسنجاني لإسرائيل هو خطبة هجائية مطولة معادية لإسرائيل والغرب ولا تهاجم سياسات إسرائيل فحسب، بل تقدح أيضا في مشروعية دولة إسرائيل وحقها في الوجود. ويشير رفسنجاني مرارا في خطبته إلى إسرائيل على أنها ''دولة وهمية'' ومركز متقدم ''للاستعمار'' و ''الإمبريالية'' الغربيين، وهي كلمات لا يقصد بها التحقير فحسب، بل يراد بها كذلك إنكار الصلات التاريخية والعاطفية والدينية العميقة بين الشعب اليهودي وأرض إسرائيل. وإن نظرة رفسنجاني المغلوطة للتاريخ

050202 050202 02-22851 (A)
0222851

الإسرائيلي واليهودي تخدم هدفه المتمثل في الطعن في مشروعية دولة إسرائيل وحرمان الشعب اليهودي من الحق في تقرير المصير.

وفي هذا السياق، وردت إشارة رفسنجاني المفزعة إلى تباين عواقب أي هجوم نووي على إسرائيل وعلى العالم الإسلامي. وزاد على هذا التهديد المضمر بالإبادة الجماعية النووية تهديدا آخر أكثر صراحة بقوله إن ''هذا الورم المزروع في جسد العالم الإسلامي سيستأصل يوما ما استئصالا نهائيا، وعندئذ سيتشرد مرة أخرى ملايين اليهود الذين هاجروا إلى هناك [إسرائيل]''.

واستخدام مثل هذه التعابير المجازية أمر معهود من القادة الإيرانيين. فقد أدلى آية الله علي خامنئي، قائد الثورة الإسلامية في إيران، بتعليق مماثل في ٣١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ في طهران، جاء فيه ''إن كرامة إيران ووحدتها ومصالحها الوطنية مرهونة بالتصدي للورم السرطاني الذي يمثله النظام الصهيوني''. وقبل عامين بالضبط من ذلك، أي في ٣١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩، ذكر الرئيس الإيراني محمد خاتمي أن ''هنالك طريقة واحدة لتسوية القضية الفلسطينية، هي محق النظام الصهيوني والقضاء عليه''.

وهذه التصريحات التي تشبه إسرائيل بالسرطان، على ما فيها من فظاعة، تزداد بشاعتها لدى النظر إلى أن القادة الإيرانيين كثيرا ما يتحدثون عن ضرورة الحوار بين الحضارات، ويتباهون بأنهم هم الذين اقترحوا إدراج البند الذي يحمل هذا العنوان نفسه في جدول أعمال الأمم المتحدة. وغاية النفاق أن تصور دولة ما نفسها على أنها صاحبة مبادرة ترمي إلى إشاعة قدر أكبر من التفاهم والتسامح فيما بين الحضارات، وأن تدعو في الوقت نفسه إلى القضاء على دولة عضو مثلها في الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٩. وقد ذكّر الرئيس خاتمي الجمعية العامة في ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١ بأن الحوار يتطلب ''الحكمة والانضباط وحسن النية''. فهل تساعد التصريحات المذكورة، والعديد من التصريحات الأخرى المماثلة لها، في تعزيز حسن النية اللازم لإنجاح الحوار فيما بين الحضارات؟

وموجز القول هو إن إشارة رفسنجاني إلى محق دولة إسرائيل بالأسلحة النووية ليست سوى جزء صغير من حملة حاقدة أوسع نطاقا ضد حق إسرائيل في الوجود، تشمل توجيه تهديدات تكاد تكون صريحة ضد الدول الغربية التي تؤيد إسرائيل. ومن المؤسف، وإن لم يكن مثيرا للدهشة إطلاقا، أن يلجأ الممثل الدائم لإيران، إلى السباب في محاولته تفنيد رسالة وزير الخارجية الإسرائيلي، شيمون بيريز، التي وجهت انتباه المجتمع الدولي أصلا إلى التصريح المخزي لهاشمي رفسنجاني، بدلا من أن يتناول ذلك الممثل مضمون التصريح نفسه.

ومن ثم فإنه توخيا للحياد وتمكينا للمجتمع الدولي من الحكم بنفسه على تصريح رفسنجان، أرفقت طيه النص الكامل للبيان الذي أدلى به رفسنجاني في طهران في ١٤ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ وأذاعه صوت جمهورية إيران الإسلامية، وهو المحطة الإذاعية الرسمية لذلك النظام. وقام بترجمة التصريح قسم الاستماع بهيئة الإذاعة البريطانية (انظر المرفق).

وأرجو ممتنا تعميم نص هذه الرسالة ومرفقها بوصفه وثيقة رسمية من وثائق الجمعية العامة، في إطار البندين ٢٥ و٤٢ من جدول الأعمال، ومن وثائق مجلس الأمن.

(توقيع) يهودا **لانكري**
الممثل الدائم

مرفق الرسالة المؤرخة ٢٢ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢ الموجهة إلى الأمين العام من الممثل الدائم لإسرائيل لدى الأمم المتحدة

البيان الذي أدلى به رئيس مجلس الشورى والمصلحة العامة، أكبر هاشمي رفسنجاني، في جامعة طهران في ١٤ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ (المصدر: هيئة الإذاعة البريطانية، قسم الاستماع العالمي)

بسم الله الرحمن الرحيم... تلبية لطلباتكم، سأكرس الخطبة الأولى للقضية الفلسطينية والأحداث الجارية في العالم الإسلامي. وسأتطرق في الخطبة الثانية إلى مسائل أخرى.

بادئ ذي بدء، أود أن أوجه الشكر إلى جميع ذوي الخير الذين حرصوا على المشاركة في التجمعات المنظمة من أجل القدس، والذين رأيتهم في شوارع عديدة متوجهين صوب الجامعة زرافات. وما ذلك إلا تعبيرا عما يتحلى به شعبنا من اليقظة والوعي والإيمان والخلق المتين. وأملي أن يتم التعبير عن التأييد للفلسطينيين بشكل مماثل في جميع أنحاء العالم.

إن الفترة التي عاشتها قضية فلسطين، وشهدت تشكيل دولة إسرائيل، هي من أحلك الفترات في التاريخ المعاصر. ولا علم لي بأي مأساة مماثلة لهذه المأساة. ففي الخمسين سنة التي تلت تشكيل هذه الدولة الوهمية، وخلال عدة عقود سبقت ذلك، حيث دارت رحى القتال، أريقت دماء مئات الآلاف من الشهداء، وفقد ملايين من الناس ديارهم، كما أصيب الملايين بجروح. وتشكل المآسي الناجمة عن هذه الأحداث أكبر موسوعة للجرائم التي ارتكبها الاستكبار العالمي، والتي لن تنمحي من ذاكرة التاريخ. وأود أن أناقش في هذه الخطبة حوالي ٣٠ نقطة بشأن تاريخ هذه الأحداث. وأعتقد أن من الممكن التطرق إليها في خطاب واحد أود أن أشير فيه إلى النقاط الهامة التي ينطوي عليها هذا التاريخ.

أولا، هذا الحدث هو أشد الأحداث الاستعمارية بلاء ومأساوية وعنفا. وثانيا، تتحمل القوى الاستعمارية، بزعامة بريطانيا وبعدها أمريكا، وبمساندة الأمم المتحدة وغيرها من مراكز الاستكبار العالمي، المسؤولية عن هذه الجرائم. وإذا شكلت مستقبلا محكمة دولية – وهذه هي نقطتي الثالثة ومؤداها هو أن المحكمة الدولية ستنشأ إن عاجلا أو آجل – وحوكم المسؤولون عن تلك الجرائم، سيكشف النقاب عن العديد من الحقائق المريرة أمام تلك المحكمة. وينبغي لنا أن نتابع هذه الفكرة وأن نطلب إلى قضاة عدول وثقاة النظر في هذه الجرائم.

أما النقطة الرابعة فهي أن القوة الدافعة لهاته الكارثة هي الحركة الصهيونية الدولية. فالصهيونية حزب دولي أنشئ منذ حوالي ١٠٠ سنة. وقد أطلق عليه ذلك الاسم نسبة إلى أحباء صهيون، وهي قمة تل يقع في بيت المقدس. ولا يضم هذا الحزب في عضويته يهودا فقط، كما أن اليهود ليسوا كلهم صهاينة. فهناك عديد من اليهود لا يؤمنون بالصهيونية، وثمة الكثير من العلماء اليهود في أمريكا، وفي أنحاء أخرى من العالم، ممن يناهضون هذه الأحداث. ومن جهة أخرى، ليس كل أعضاء الحزب الصهيوني يهودا، بل كان منهم سياسيون غربيون مرموقون مثل تشرشل وأيزنهاور وكنيدي وغيرهم، ولكوني لست خبيرا في هذا المجال بطبيعة الحال، لا أريد أن أضم إلى هؤلاء أية أسماء أخرى. ويمكن لمن يهمه الأمر أن يتوصل إلى أسماء غيرهم من مشاهير الصهاينة. وهذا الحزب لا يزال نشطا جدا في جميع أنحاء العالم، وهو المحرك للأحداث المهمة ذات الصلة بإسرائيل وبالعالمين العربي والإسلامي.

والنقطة الخامسة هي أن فلسطين لم تكن الضحية الوحيدة لإنشاء دولة إسرائيل الوهمية. فقد عانى من ذلك الشعب اليهودي نفسه. فاليهود كانوا مستقرين في العديد من البلدان، ومنها إيران. وكانوا في بلدنا يحيون حياتهم ويمارسون التجارة ويتمتعون بالثراء والنفوذ ورغد العيش، إلى أن دفعت الحركة الصهيونية العديد منهم، من منطلق تعلقهم بإنشاء دولة دينية خاصة بهم، إلى السير على درب الندامة. فمورست عليهم الضغوط وخرجوا من البلدان التي كانوا فيها وأصبح الكثير منهم مشردين، وانتهى بهم الأمر إلى العيش في تلك الأراضي في ظل ظروف سأتطرق إليها إذا بقي متسع من الوقت. غير أن عليهم أن يترقبوا الخروج المحتمل في الاتجاه الآخر لأنه سيأتي في نهاية المطاف اليوم الذي يُستأصل فيه هذا الورم من جسد العالم الإسلامي وسيكون التشرد مرة أخرى مصير ملايين اليهود الذين رحلوا إلى هناك. متى ذلك؟ علينا أن نناقش هذا الموضوع في مناسبة أخرى.

وكان إنشاء إسرائيل خسارة للمنطقة أيضا، وقد عانت كثيرا من جراء ذلك. فقد أنفقت مئات البلايين من الدولارات على التسلح والحروب، وذلك إلى جانب الحيف الذي لحق بالشعب الفلسطيني. من المستفيد إذن من هذه الوضعية؟ تلك هي النقطة السادسة التي أود التطرق إليها. فالسبب الجذري للمشكلة هو الاستعمار. فمع أفول الشكل التقليدي للاستعمار، بحثت القوى الاستعمارية عن أدوات جديدة لممارسة نفوذها. وكانت إحدى هذه الأدوات إقامة حكومات عميلة في المستعمرات السابقة، وكذلك إنشاء العديد من القواعد العسكرية في جميع أرجاء العالم، في المحيط الهادئ والمحيطين الهندي والأطلسي، وغيرها من المناطق الحساسة في العالم، وكذلك إنشاء مراكز استعمارية عسكرية باهظة التكلفة في البر والبحر. غير أن أهم أهداف القوى الاستعمارية كان إنشاء حكومات تخضع

لها خضوعا تاما، وكانت الأداة المثلى لذلك هي اليهود، والحكومة الصهيونية في الأرض الفلسطينية. وكان المراد من إنشاء قاعدة صهيونية على أرض فلسطين هو تحقيق عدة أهداف.

فأما الهدف الأول فهو التخلص من الصهيونية في الغرب لأنها أصبحت مصدر إزعاج حقيقي للحكومات والدول الكبرى. ولذلك أُخرج اليهود من الغرب وأُحضروا إلى فلسطين. وثانيا، جعلت القوى الاستعمارية الصهيونية والحكومة الإسرائيلية معتمدة عليها كي تكونا أداة في يدها. غير أن العكس صحيح أيضا؛ إذ أن لليهود جماعات ضغط تستغل الاستعمار لضمان بقائها. ولكن الاستعمار هو أهم عامل في هذه المعادلة، وإن تحول في وقت لاحق إلى الإمبريالية لأنه لم يعد موجودا رسميا بشكله التقليدي. وبذلك أصبحت الإمبريالية الشكل الجديد للاستعمار.

وثالثا، خلقت القوى الاستعمارية دولة إسرائيل لزعزعة الأمن وتهديد الحكومات الأخرى وإجبارها على الاعتماد على الإمبريالية، فتتمكن بذلك من بيع أسلحتها إلى تلك الدول والقيام بغير ذلك من الأنشطة العسكرية. وقد أثر ذلك تأثيرا كبيرا على حياة أهل المنطقة وحكوماتها وعلى المسلمين، إذ أصبحوا في حاجة إلى منتجات غربية وإمبريالية معينة.

وبذلك أصبحت المنطقة في حالة حرب دائمة وأضحت بلدانها غير آمنة، وتوالت المحاولات الرامية إلى عرقلة نموها الاقتصادي والتكنولوجي. كل ذلك واضح للعيان ولا حاجة بنا للدخول في التفاصيل. فجميع هذه الأمور تجري أمام أبصاركم. ومن هنا تأتي أهمية هذه النقطة، فأرجو ألا تغفلوا عنها إلى أن نأتي إلى ختام هذه المناقشة، فنستطيع أن نرى كيف يمكننا أن نعتمد عليها لدى تحليل الحالة في فلسطين أو عند التنبؤ بالمستقبل. فالحكومة الإسرائيلية أنشئت، كما ذكرت سلفا بشأن هذا الموضوع، لتكون حارسا وحاميا وخفيرا يدافع عن المصالح الإمبريالية.

والحكومة الإسرائيلية نفسها، سواء في مراحل تكونها الأولى أو بشكلها الحالي، هي كالجنين الذي يستمد وجوده وغذاءه واستمراريته من الاستعمار. فإن توقفت القوى الإمبريالية عن دعمها، فستذوي وتضمحل. فلا وجود إذن لحكومة مستقلة بمعنى الكلمة في إسرائيل، لأنها تعتمد اعتمادا كليا على غيرها. فالأمريكان يقدمون لها رسميا مساعدات قدرها ٤ بلايين دولار سنويا. وهناك أيضا المساعدات غير الرسمية من الجاليات اليهودية وغيرها، وهي مساعدات ضخمة.

كما أن الحكومة الإسرائيلية تحظى بالمساندة السياسية في الأمم المتحدة ومن جهات أخرى كثيرة، ومنها حكومات إسلامية وعربية. وإسرائيل تحتاج إلى كل هذا الدعم،

وأمريكا وبريطانيا لا تدخران جهدا في تلبية احتياجاتها. وتبعا لذلك، علينا أن نعتبر إسرائيل امتدادا للاستعمار وقاعدة استعمارية متعددة الأغراض. وأتخذ ذلك منطلقا لمناقشة النقطة التالية، وهي أن بقاء إسرائيل يعتمد على مصالح القوى الإمبريالية والاستعمارية. ومن ثم فإن هذين الأمرين مترابطان وكل منهما قرين للآخر.

وستظل القوى الاستعمارية محتفظة بهذه القاعدة ما دامت بحاجة إليها. أما مسألة ما إذا كان هذا بوسعها أم لا فموضوع آخر، وهذه هي نقطتي التالية. إذ حالما تجد القوى الاستعمارية بديلا لهذه الأداة التي تخدم مصالحها ستتبناها وستنتهي هذه الوضعية وتنفتح بذلك صفحة جديدة. ولأنه يصعب على الاستعمار والإمبريالية أن يتركا شعوب العالم. وشأنها، فإنهما قد رتبا الأمر بحيث يميل ميزان القوى لصالح إسرائيل. ونظرا لأنه لا يمكن لقوات إسرائيل التفوق عدديا على القوات الإسلامية والعربية، فإن القوى الاستعمارية حسنت نوعية أسلحتها. ولما كانت الأسلحة التقليدية محدودة الاستعمالات والمدى، فإنها زودت إسرائيل بكميات هائلة من أسلحة الدمار الشامل والأسلحة غير التقليدية. وسمحت لها بحيازة تلك الأسلحة مع غض الطرف عما يدور في هذا الصدد. ولدى إسرائيل الآن أسلحة نووية وكيميائية وبيولوجية وقذائف بعيدة المدى وما شابه ذلك.

وإذا تصورنا، وهذا محض تصور بالطبع، أن الأحوال تغيرت وأصبح العالم الإسلامي مجهزا أيضا بأسلحة مماثلة لما يوجد في حوزة إسرائيل الآن، فإن الاستراتيجية الإمبريالية ستجد نفسها في مأزق، لأن إلقاء قنبلة نووية واحدة فقط على إسرائيل لن يبقي ولن يذر، أما في العالم الإسلامي فإن هذا لا يمكن أن يلحق به سوى بعض الأضرار. وليس من شطحات الفكر تصور وقوع هذا الاحتمال. فلا غرو إذن كما ترون في أن يظل الأمريكيون بالمرصاد لأي إشارة مهما قل شأنها تفيد بإحراز أي بلد إسلامي مستقل تقدما تكنولوجيا. وإذا ما فكر أي بلد إسلامي مستقل في الحصول على أنواع أخرى من الأسلحة، فإنهم يبذلون قصارى الجهود لمنعه من ذلك. وهذا موضوع تجري مناقشته الآن في جميع أنحاء العالم تقريبا.

وحتى إن لم يحدث ذلك، فبالإمكان إلحاق قدر أكبر من الخسائر بالقوى الإمبريالية. نعم هذا ممكن أيضا. فقد أصابت التطورات التي حدثت خلال الأشهر القليلة الماضية الأمريكيين بالرعب. وذاك في حد ذاته خسارة لحقت بهم. ويمكن، في ظل ظروف خاصة، إنزال أضرار من هذا القبيل بالقوى الإمبريالية من طرف الأشخاص الذين يدافعون عن حقوقهم أو من قبل المسلمين. وعندئذ يمكنهم أن يقارنوا هذا بذاك وأن يقدروا كيف يمكنهم تعزيز مصالحهم بشكل أفضل وأن يقرروا ما يمكنهم عمله. غير أنه لا يمكننا أن

نخوض في مثل هذه المناقشات لوقت أطول من اللازم. ولا يصح لنا أيضا أن نشجع أي أعمال من هذا القبيل. فأنا أتحدث فقط عن المجرى الطبيعي للأحداث، الذي يجعل من وقوع مثل هذه التطورات أمرا ممكنا.

فاليأس قد يدفع الأشخاص المؤمنين والمثاليين إلى الاعتقاد بأن القيام بتلك الأعمال في مصلحتهم. ولا سبيل إلى كبح جماحهم عندما تستبد بهم خيبة الأمل من جراء الأساليب الاحتيالية التي عادة ما تلجأ إليها القوى الاستعمارية والإمبريالية. ومن ثم فإن مصالح تلك القوى هي التي ستحدد في المستقبل ما إن كان سيكتب لإسرائيل البقاء أم لا. والأهم من ذلك هو المقاومة التي يبديها المسلمون والعراق وفلسطين. إذ عليهم تضييق الخناق على الإمبرياليين وجعلهم يفكرون فيما إن كان الإبقاء على إسرائيل في مصلحتهم أم لا، وأيضا ما إن كان في طاقتهم أم لا الإبقاء على التوازن الحالي للقوى، الذي هو في صالح إسرائيل. فهذان عاملان قد يتغيران في المستقبل.

ما هي إذن السياسة التي ينبغي للجمهورية الإسلامية اتباعها؟ هذه مسألة أخرى وهي النقطة الثامنة أو التاسعة التي أود التطرق إليها. فكما أشرت سابقا، أعلن القائد الأعلى للثورة آية الله علي خامنئي معالم سياستنا مرارا، وأفصح عنها بصراحة خلال خطب صلاة الجمعة التي ألقاها مؤخرا. ولا نزيد على ما قاله إلا أن نحلل تلك السياسات. والحكومة والمجلس وكل المؤسسات الإيرانية وأصدقاؤنا في الخارج يتبعون جميعا هذه السياسات نفسها.

وخلال تلك المراحل كلها، واصل الفلسطينيون الجهاد على قدم وساق. والحقيقة أنهم لم يبقوا مكتوفي الأيدي في أي وقت من الأوقات، وإن تقلبت أحوالهم، ولكنهم لم يركنوا للصمت إطلاقا. وقد تكثف الصراع المسلح لبعض الوقت، غير أنه حدث تدخل من خلال الضغط على المشاركين في الصراع المسلح. وأثار ذلك مسألة كامب ديفيد باستخدام الحكومات العميلة، وأضاع ذلك ٢٠ سنة من وقت الفلسطينيين.

ولا يمكن القول بأن الجهاد قد خمد تماما. غير أنهم أوجدوا آمالا كاذبة وظل الشعب يخوض نوعا هادئا نوعا ما من الجهاد. وأسفر ذلك في النهاية عن إنشاء ما يسمى بالسلطة الوطنية. وقدموا وعودا كاذبة شملت ٦ ٠٠٠ كيلومتر مربع فقط من مساحة الأرض الفلسطينية البالغة ٢٨ ٠٠٠ كيلومتر مربع. وأمكنهم بهذه الطريقة تشكيل حكومة صغيرة غير ذات شأن هناك. غير أن ذلك العهد في سبيله إلى الزوال على ما يبدو.

بعد تلك المرحلة، انتظر الفلسطينيون وانتظروا صامتين. وشكلوا أحزابا سياسية. وحمل بعضهم السلاح ولكن دون قوة. وبلغت مرحلة تقديم التنازلات هذه نهاية المطاف في

اجتماع كامب ديفيد الثاني المعقود في نيويورك أو واشنطن في أمريكا. وفقد عرفات الأمل بعد أن كان حتى ذلك الحين متفائلا بشأن جهود الوسطاء الأمريكيين. وعند قدومه إلى إيران قال إن التعليقات التي أدلى بها الرئيس كلينتون خلال الاجتماع كانت بمثابة قنبلة قضت على المفاوضات. ولم تكن التصريحات التي أدلى بها الرئيس الأمريكي بعد عدة أيام من المفاوضات المكثفة، إلا تكرارا للمطالب الإسرائيلية بصيغة مختلفة، فكان أن انفض الاجتماع. وقد دون عرفات جميع هذه الوقائع وتلاها عليَّ من مذكرته.

وفي غضون ذلك، وهذه هي النقطة العاشرة التي أحب أن أتناولها، انطلقت الانتفاضة وبلغت ذروة جديدة. وخلص الفلسطينيون إلى أنه لن يكتب للمفاوضات النجاح أينما أجريت، سواء في مدريد أو كامب ديفيد أو أوسلو أو أي مكان آخر، ما لم يرافقها النضال والتفاني والأعمال الثورية من جانبهم. وكانت تلك هي خلفية الانتفاضة الثانية التي انطلقت حين أجبر اللبنانيون، بفضل أعمالهم الباسلة، الإسرائيليين لأول مرة على الفرار وهم يجرون ذيول الخيبة. وكان ذلك درسا مفيدا ومستثيرا للهمم. والنضال الفلسطيني مستمر، والانتفاضة، وهي الذروة الحالية لهذا النضال، هي نتيجة التضليل والاحتيال الذي مارسته القوى الغربية. وكلنا شاهد على ذلك في عالم اليوم. فالمسألة ذات جذور عميقة.

والسؤال الآن هو هل سيصيب الفتور الثورة الفلسطينية، وهي الانتفاضة الحالية، في المستقبل؟ قد يظن البعض أن الفلسطينيين سينال منهم التعب، وأن شعبا قليل العدد لن يستطيع الصمود في وجه كل هذا الجبروت، وأن الضعف والعجز البادين على العالم الإسلامي وحكوماته سيفتان في عضده. ولكن ما أبعد هذا الظن عن الحقيقة.

إن الجهاد الفلسطيني كان ولا يزال مصدر إلهام للعديد من الحركات الإسلامية الأخرى في جميع أنحاء العالم. وكذلك كان الشأن بالنسبة لنا في إيران وفي لبنان وسوريا وأفغانستان وإندونيسيا وماليزيا ووسط آسيا والشيشان والبلدان الأفريقية والسودان. فجميع تلك الحركات تشعر أن من واجبها مساندة ذلك الجهاد. كذلك فإن ما تحققه تلك الحركات من تقدم يعود بآثار إيجابية مماثلة على الحركة الفلسطينية. ولن تنسى هذه البلدان مصدر إلهامها، وستظل ترقب الحالة عن كثب. ومن ثم فإن جذوة الحركة الفلسطينية لن تخبو. قد تخفت قليلا ثم تتوهج حسب الأوضاع الدولية، لكنها لن تموت. وكيف لها أن تموت وهي ترتوي من تشرد خمسة ملايين شخص، وبراءة ثمانية ملايين شخص، والدماء الزكية لمئات الآلاف من الشهداء الذين ما زال نداؤهم ملء الآذان، والأسلحة التي مات عنها أصحابها وتتوق إلى من يحملها ثانية، ومشاعر البراءة والعدل المضيعين، وأهم من ذلك كله، أنها تسير على درب الشهادة والسعادة والصراط الذي خطه الحق سبحانه وتعالى. ولذا

يستحيل القول بأن الحركة الفلسطينية ستموت. قد تخفت وتتوهج، لكنها ستبقى. وستكتمل لا محالة بتحرير فلسطين. [هتافات من الجمهور]

لقد انحسرت الموجة العارمة للجهاد الإسلامي في فلسطين مع بدء مفاوضات التنازل. وحين وصلت المحادثات إلى مأزق، اشتدت حدة الانتفاضة الفلسطينية مرة أخرى، ونحن الآن أمام وضعية جديدة في غاية الأهمية.

وأصل الآن إلى النقطة الحادية عشرة. إذ يبدو أن قوى الاستكبار العالمي قد دبرت أربع مكائد لوقف الانتفاضة الحالية وقمعها، أو على الأقل التخلص من عواقبها الوخيمة. أما المكيدة الأولى فهي الحملات الدعائية. فبوسع المرء أن يرى الحملة الدعائية الكبرى المنظمة حاليا على النطاق العالمي والتي تلصق صفة الإرهاب بالفلسطينيين، وتزعم أن إسرائيل إنما تدافع عن نفسها. ولا يمكن لأحد أن ينطلي عليه هذا الكلام إلا أن يكون بحماقة جحا. فمن يصدق أن إسرائيل، بكل ما في حوزتها من طائرات الهليكوبتر وطائرات الـ ف-١٦ والمدافع والصواريخ، التي تستعملها في ارتكاب الاغتيالات، هي الطرف الذي يدافع عن نفسه؛ وأن الإنسان الذي يصل به نكران الذات والإيمان بالقضية، في غياب البديل، إلى التمنطق بقنبلة وتفجير نفسه لتتطاير أشلاؤه في مكان ما، هو العنصر الإرهابي؟ فإذا حدث يوما ما أن وصل العالم إلى هذا الاستنتاج وأطلق هذا الحكم، فإن علينا أن نعتبر أن الإنسانية قد هلكت وصارت إلى قبرها، وأن ندرك أن البشر صاروا كالألغام، بل هم أضل سبيلا. وهناك بطبيعة الحال من يتصرفون بهذه الطريقة الآن، ويدعون أنهم أنصار لقضية حقوق الإنسان.

وفي رأيي أن هذا النوع من المعتقدات لن يجد له موقعا في صدور الخيرين والمناضلين. غير أن هناك من يروج لهذه الدعاية في العالم اليوم.

أما الطريقة الثانية التي اختارها أقطاب الاستكبار العالمي فهي العنف. إذ ترون كيف ترتكب إسرائيل أعمال العنف، فكلما قتل شخص في الأراضي الإسرائيلية، ترسل سربا من طائرات الهليكوبتر لقصف الفلسطينيين عشوائيا. ويمكنكم أن تروا بأنفسكم المدى الذي وصل إليه هذا العنف. فهل هذا هو الرد المتناسب أو السليم؟ ولا بد من الإقرار بطبيعة الحال بأن هاتين الطريقتين، أي الدعاية والعنف، كان لهما بعض التأثير، لكنهما، على العموم، لم تؤديا إلا إلى تفاقم هذه الحالة الوخيمة. فالأشخاص الذين لا يجدون بدا من اللجوء إلى عمليات استشهادية لن يخيفهم هذا العنف. وعلى كل حال، ليس لديهم ما يخسرونه. وكيف لشخص أن يخسر إذا اعتقد أن تفجير نفسه سينقله في رمشة عين من هذه الدنيا

الفانية إلى جنة الخلد على أجنحة الملائكة الكرام، ليكون في رفقة النبي والصالحين وفي موضع التكريم للشهداء الأبرار؟

فمثل من يلجأ إلى هذا التخويف هو حقا كمثل البطة أو السمكة التي تحاول أن تخيف النهر أو البحر، غافلة عن أنها لا تستطيع العيش بدون مياهه.

وكما قلت سابقا، فإن هذا النوع من الناس وليد الأوضاع السائدة في فلسطين. وقد تنجح أعمال العنف التي ترتكبها إسرائيل في إخراس بعض العناصر المتذبذبة أو الانتهازية، لكنها كقاعدة ستقوي عزيمة الآخرين. وإني لهذا السبب، أريد أن أحذر أقطاب الاستكبار العالمي من أن ممارسة الضغط على الشعب الفلسطيني ومساندة إسرائيل يمكن أن تكلفهم غاليا. وليس بمقدور أحد أن يمنع هؤلاء الذين سئموا الجور والمؤمنين بقضيتهم والمحبين للشهادة من أن يوجهوا ضربات للمصالح الحيوية لتلك الأقطاب أينما وجدت إذا ما قرروا ذلك يوما ما. وقد يكون بوسع الأمريكان منع نصف هذه العمليات، أو حتى ثلثيها، ولكن ذلك لن يحول دون تنفيذ بعضها، وستكون الخسائر عندئذ فادحة. وعلى الأمريكيين استخلاص درس من أحداث نيويورك، ولا سيما في الوقت الراهن. إذ أنهم بأعمالهم العدوانية وأخطائهم قد مهدوا السبيل أمام بعض الجماعات وجعلوا بإمكانها أن تتزود بأسلحة غير تقليدية. [الجمهور يهتف: الموت لأمريكا]

لذلك، أود، بحكم معرفتي الجيدة بالتاريخ، ولا سيما تاريخ الحركات الشعبية، أن أحذر الغربيين من مغبة ترك الأمور تصل إلى هذا الحد. إذ لا ينبغي لهم أن يشعروا بالرضا عن أحداث مثل عمليات الهجوم بطائرات الهليكوبتر وغيرها من أعمال العنف التي ترتكبها إسرائيل، ففي ذلك خطر كبير. ونحن لا نريد لأمن العالم أن يختل ولا أن نرى التخلخل الراهن في الحالة الأمنية، الذي كلف العالم أكثر من ٠٠٠ ١ بليون دولار وأصاب العالم بالشلل في كثير من المجالات، بما في ذلك إسرائيل نفسها. وينبغي للغرب ألا يترك العالم نهبا لهذه الأوضاع. وعليه كذلك ألا يسمح بوجود حالة مواجهة وخصومة بين القوى المؤمنة والمحبة للشهادة ومراكز القوى المستكبرة، تتخذ شكل حرب عالمية ثالثة. وهذا هو المصير البائس، إذا تمادى الاستكبار فيما هو سادر فيه حاليا.

أما الطريقة الثالثة التي تولاها أقطاب الاستكبار العالمي فهي الاحتيال والوعود الكاذبة. فها هي ذي أمريكا تعلن أنها تؤيد إنشاء دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها بيت المقدس. أما الممارسة الفعلية التي نراها فهي شيء مختلف. وها هي ذي أوروبا تعلن نفس الشيء، وميتشل يضع خطة لا تختلف عن مثيلاتها من الخطط التي تؤدي بطبيعة الحال إلى آثار قصيرة الأجل لا تتعدى شهرا أو شهرين. فبعد فترة، يبدأ الأشخاص الذين قدموا هذه

الوعود يشعرون على ما يبدو بالندم على ما بدر منهم من تصريحات في حين يبدأ الذين صدقوا تلك الوعود في الشعور بالندم على قرارهم ذاك. وهذه الخطط لن تجدي كثيرا، ومنها الخطة الأخيرة التي تشمل استخدام ما يسمى بسلطة الحكم الذاتي الفلسطيني. ومما يجلب الشعور بالمرارة حقا أن تقدم لسلطة الحكم الذاتي قائمة بأسماء ٢٠٠ شخص على سبيل المثال ويطلب منها اعتقالهم وتسليمهم إلى إسرائيل. ونسأل الله ألا تذعن سلطة الحكم الذاتي لإرادة الإسرائيليين، وإن كانت قد فعلت ذلك إلى حد ما. فالإسرائيليون لن يقنعوا بعملية اعتقال واحدة لأن غايتهم أكبر من ذلك بكثير.

وأسوأ شيء قد يقع هو الشقاق والتطاحن بين الفلسطينيين. فكل الذين يجاهدون منذ ٥٠ سنة قد يهدمون جميع ما بنوه بعمل واحد طائش. وحدث كهذا ممكن الوقوع وإن كنا نشفق منه على تاريخ النضال الفلسطيني. وأظن أن الإسرائيليين أعلنوا منذ عدة أيام أنهم واثقون تماما من عرفات ومن عزمه على إقرار الأمن. وقد لاحظتم أن إسرائيل وأمريكا تؤكدان على ضرورة أن يسود الهدوء التام لمدة أسبوع قبل الشروع في أية مفاوضات جدية. وهما تظنان أن هذه المدة كافية لأن تجعل انبعاث الانتفاضة من جديد أمرا صعبا. وفي غضون ذلك الأسبوع، يمكن لهما اتخاذ قرارات أخرى. وينبغي ألا تذعن سلطة الحكم الذاتي لهذه المطالب ظنا منها أها ستحقق أهدافها بهذه الطريقة. فقد رأى عرفات بعينيه وسمع بأذنيه في أمريكا تصريحات السيد كلينتون النهائية ودونها في مذكرته. وهو يعرف ما قد يقع. وتبعا لذلك، لن تنطلي هذه الخدعة الكبيرة بمشيئة الله على قادة سلطة الحكم الذاتي.

ومن الطرق الأخرى التي يلجأ إليها أقطاب الاستكبار محاولة الفت في عضد المجاهدين وترويج ما كانوا يقولونه لنا دائما في إيران من أن هذه الأعمال عديمة الجدوى، وأنها أشبه بمحاولة تحقيق المستحيل، وأن حياة الإنسان ثمينة ولا يجب إهدارها بهذه الطريقة. وكل ذلك يتعارض مع المنطق الإسلامي والقرآني. فالأمر يتعلق هنا بمسلمين يخضعون للمنطق الإسلامي.

فالقرآن يقول: ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون.

ويقول أيضا: لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون. وورد فيه أيضا: أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جُرف هار فانهار به في نار جهنم. [العبارات السابقة قيلت بالعربية] فهاتان الفئتان إذن لا تستويان.

وأنتم، يا من يحسبون أنفسهم أذكياء ودبلوماسيين، لا ينبغي لكم أن تتساءلوا لم يُلقى بهؤلاء الأطفال الفلسطينيين إلى التهلكة. فهذه الضربات التي تتلقاها إسرائيل مهلكة. وهم يدمرون العدو من الداخل. وقد اكتشف الشعب الفلسطيني الذي لا يملك أسلحة ذرية أو كيميائية أو طائرات من طراز إ ف – ١٦ شيئا أقوى من تلك الطائرات فأقبل على استعماله. فأنتم لم تتركوا لهم أي خيار، وسددتم في وجههم كل الطرق، وسعيتم إلى افنائهم. ونتيجة لذلك، يبدو أن هذه الأساليب التي يتبعها الإمبرياليون لن تجدي نفعا. هذه هي النقاط التي أردت أن أوضحها و لم أعد أذكر إن كانت ثماني أو تسع نقاط، ولعلكم أقدر على عدها.

ولكم أن تروا مدى ما وصلت إليه غطرسة إسرائيل بهذا الشأن. فقد عقد مؤتمر وزراء خارجية البلدان الإسلامية في قطر بدعوة من عرفات وكان الجميع ضيفا عليه في المؤتمر. وكان موقف إسرائيل المتغطرس هو أن عرفات لا يملك الحق في مغادرة فلسطين، بل إنها ذهبت إلى أبعد من ذلك بأن قالت إنه لا ينبغي أن يغادر رام الله. واليوم، يقولون إنه لا حق له في مغادرة مترله. فهل تسمون هذا حكما ذاتيا؟ إن وضع عرفات لا يجاوز وضع عمدة ضعيف معين وليس منتخبا ولا يملك أي سلطة. فأي حكومة أو مؤسسة هذه التي علقتم آمالكم عليها؟ و لم أضعتم ٢٠ سنة من وقت الشعب الفلسطيني؟ بل إن هناك الآن من ينصح الفلسطينيين من الشبان والنساء الذين التحقوا مؤخرا بصفوف طالبي الشهادة بأن يدخروا أنفسهم لمرحلة مقبلة. وأريد أن أتطرق إلى مسألتين هامتين أخريين في الجزء الثاني من خطبتي.

والآن وقد ساءت الأحوال، فإن الأوروبيين، الذين اتخذوا نهجا مغايرا لنهج أمريكا وإسرائيل خلال الأشهر القليلة الماضية وبعثوا بعض الأمل في العالم الإسلامي، قد تراجعوا عن ذلك الموقف.

فهم يصرحون الآن علنا بأن حركتي حماس والجهاد الإسلامي في فلسطين منظمتان إرهابيتان. وقد بلغت بهم الوقاحة أن يطلبوا من البلدان الإسلامية أن تعامل هاتين المنظمتين معاملة الإرهابيين، وأن تغلق حساباتهما ومكاتبهما وتحاكم أعضاءهما. وهذا الإذعان أمر مشين للحكومات الأوروبية التي تعتبر نفسها ندا لأمريكا. وكيف لها أن تبرر لشعوبها المحبة للحرية الحيف الذي يعاني منه الفلسطينيون؟ فهل هذا هو الإنصاف في رأيها؟ أم هل غاب عن بالها أن هناك خمسة ملايين لاجئ فلسطيني يعتمدون وأسرهم على معونة الأمم المتحدة في المخيمات ومدن الأكواخ. وهل تناست أن الصهاينة الأغنياء يستولون على بساتينهم ومنازلهم ومزارعهم وورشهم داخل الأراضي الفلسطينية؟ هل تسمون دفاعهم عن أنفسهم

إرهابا؟ ألا تستحون من أنفسكم؟ أي نوع من البشر يتفوه بمثل هذه الأشياء ويصوت في بلده مؤيدا لها؟ إننا نريد لشمس الحقيقة أن تسطع على العالم. نريد لمحيي الحرية في العالم أن يطلعوا على الحقيقة. نريد لهم أن يروا أن الذين يطلقون على أنفسهم لقب قادة العالم الحر ويدعون أنهم يدافعون عن حقوق الإنسان، هم في حقيقة الأمر أعداء حقوق الإنسان. وهم أضعف وأقل شأنا مما يتصورون. ولا شيء يمكن أن يبرر أفعالهم. فهم يسخرون طائرات الهليكوبتر في وضح النهار لترويع الناس في الشوارع، وهم الذين يسيطرون على المجال الجوي وليس السلطة الفلسطينية. إن هذه الطائرات تهبط إلى ارتفاع منخفض لتتعرف على هوية ركاب سيارات الأجرة ثم تغتالهم، وذلك شأن الإرهابيين. فهل تفعل ذلك للدفاع عن المستضعفين؟ إن كان هذا هو منطقهم فإن أعمال الإرهابيين العاديين هي حقا أشرف من هذا الشكل المزعوم الذي يشجعه الغرب بدعوى تحقيق الحرية. وسيأتي اليوم الذي يصدر فيه العالم حكمه على ذلك.

وتتعلق المسألة الثانية بأمريكا نفسها. فقد حقق الأمريكيون، حسب اعتقادهم، وطبقا لتحليلاتهم، انتصارا خاطفا في أفغانستان بواسطة القصف المكثف. والأمر في ظاهره يبدو كذلك بالطبع. غير أنهم لا يقيمون وزنا للمبدأ الأساسي وهو أهمية دور الشعب الأفغاني والجبهة الموحدة وقوات المجاهدين. هذا على الأقل ما يزعمونه والوجه الذي يريدون أن يقدمونه إلى العالم، حتى وإن كان مخالفا لما يعتقدون في قرارة أنفسهم. فهم يرغبون في أن يظهروا للعالم أن أمريكا وجدت طريقة لمحاربة خصومها، وهي القصف من جهة واستخدام القوات الأفغانية المحلية من جهة ثانية، ما دامت تحت إمرتها. غير أن حسابات أمريكا في أفغانستان لا تنطبق على أماكن أخرى. فأنتم تعرفون أن القوات التي أجبرت الطالبان على الانسحاب هي التي كانت تقاتلهم من قبل، وكانت مشكلتها هي أنها كلما أوشكت على التقدم، كانت الطائرات الباكستانية تقصف مواقعها دعما للطالبان. وكان الجيش النظامي الباكستاني يهب طواعية لنجدة الطالبان كلما ظهر عجز في صفوفهم. أما الآن فالعكس صحيح. فأمريكا تهاجم الطالبان بدل الجبهة المتحدة التي كانت هدفا للهجمات الباكستانية. كما منعت أمريكا باكستان من التدخل من الجهة الأخرى. بيد أنه لا سبيل في هذا المقام إلى إنكار الدور الذي أدته أمريكا. أما إذا كانت تنوي مقارنة هذه الحالة بحالات أخرى واتخاذ عملياتها في أفغانستان نموذجا وأسلوبا مجربا صالحا للتطبيق في سياساتها المقبلة ، وهو أمر مرجح تماما في الوقت الراهن لأن هذه الافتراضات معتنقة حاليا في البيت الأبيض والبرلمان الأمريكي، فإن النتيجة ستكون مأساة أخرى للبشرية وللأمن العالمي، وسرعان ما سينتبه الأمريكيون إلى أنهم ارتكبوا خطأ استراتيجيا. فهذه ليست مهمة بسيطة.

وواقع الأمر هو أن الشعب الأفغاني كانت قد أجهدته الحروب والصراعات وأنانية قادته المحليين بالإضافة إلى عوامل كثيرة أخرى. فالسبيل كان ممهدا للأمريكيين، وكان بمقدور أي بلد قوي آخر أن يحقق ما حققته أمريكا لو كان مكانها. وبطبيعة الحال من الصعب جدا التنبؤ بالمستقبل، فليست لأمريكا القدرة على الاستمرار في هذا النهج، كما أنها لا تحظى بالشعبية ولا القبول لدى الأفغان ولا تتمتع بثقتهم. ولن تقبل الجهات الأخرى أيضا بذلك. وعلينا جميعا أن نعمل سويا من أجل مستقبل أفغانستان حتى لا يقع الشعب الأفغاني في شرك الحرب وكي يستتب له الأمن ويمضي قدما في العمل وإعادة البناء. ويمكن لأمريكا إذا رغبت في إبداء حسن نيتها أن تقدم الدعم والمساعدة. ولا ينبغي لها أن تفكر في تحويل أفغانستان إلى قاعدة عسكرية لأنه يمكننا منذ الآن تصور العواقب التي قد تترتب على ذلك. فلن يخرج الأمر عن ضربة يتلقاها هذا وضربة يوجهها ذاك وتقدم هنا ثم تراجع هناك، ولكن الشعوب لن ترضى ، في نهاية المطاف، بأغلال العبودية.

وأنتم ترون أنه رغم القوات العسكرية الهائلة التي يحشدها اليهود في فلسطين فإنهم لا يزالون يواجهون النضال الفلسطيني الذي بدأ منذ ٥٠ سنة وسيستمر لمائة سنة أخرى. وقد دامت الحملات الصليبية قرابة ٢٠٠ سنة وانتهت أيضا إلى هذه النتيجة. وما أشبه اليوم بالبارحة. ففي النهاية، ستنهض الأمم وتقاوم المعتدين. وفي غضون ذلك سيحافظ البعض على مصالحه المباشرة وستلحق الخسائر بالكثير.

ومجمل القول هو أن من الواضح أن العالم، ومنطقتنا بصفة خاصة، بحاجة إلى تيقظ الشعوب والحكومات من جهة، وتوخي الواقعية والإنصاف من قبل القوى المستكبرة التي تريد بعث العهد الاستعماري عن طريق نشر قواتها العسكرية، واحتلال القواعد العسكرية التي هجرتها سابقا وتأمين وجود لها في المنطقة. ونأمل، بمشيئة الله، أن يكفل السير في هذا الاتجاه العدالة والاستقامة.